

الفصل الثاني

مَا تَقُولُ لِرَبِّكَ غَدًا؟





لا شيء يميّز الطبائع المتفرقة السويّة، مثل تأيها عن الغرور..
ولو كان ثمّة رجل، لابد للغرور أن يتسوّر حصونه المنيعه لفرط
مزياه وروعة أمجاده وانتصاراته، لكان «عمر»..

فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول وصحبه.
وهو يرى كيف صار الإسلام دينًا جَهْوَريّ الصوت، صادق
الكلمة، في اليوم نفسه الذي اعتنقه فيه.
ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يَسْتخْفُون من طغاة مكة،
يووجهون اليوم الأذى في سُموخ، ويرجّون مكة بتكبيرهم بعد أن
صار «لعمر» بينهم مكان.

ويرى رسول الله ينعته بالفاروق، بعد أن فرق الله بإسلامه بين
الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة.

ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض آرائه، فلا يوافقه
الرسول فحسب، بل يتنزل به الوحي، ويصير قرآنًا يُتلى.

وفيما بعد. يُضحى خليفة لرسول الله بعد أبي بكر، وأميرًا للمؤمنين، تنفتح في أيامه «بوابات» العالم لدين الله، وتزحم راياته جوَّ السماء في كل أفق.

كل هذا، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها، إن لم يجد أكثر من الثغرات؟؟!

ومع ذلك، فلا نكاد نعرف نفسًا امتنعت على الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كلِّ محاولاته، مثل نفس هذا الرجل الفرد، «عمر»!

فمن أين له هذا..؟

لا ريب أن لطبيعته واستعداده الفطري الأثر الكبير الناجع. ولا ريب أيضًا في أن الطريقة التي اتصلت بها هذه الطبيعة بالله قد أفاءت عليها مددًا لا يفنى ومقدرة لا تتلجلج وعزوفًا كاملاً عن كل ما في الحياة الدنيا من غرور وزهو.

إن «عمر» نفسه يردُّ إلى الله، وإلى الدين الذي انتهج نهجه كل ما معه من فضائل، وهُدًى، واقتدار..

ولطالما كان يقول لإخوانه: «لقد كنا، ولسنا شيئاً مذكوراً حتى أعزنا الله بالإسلام، فإذا ذهبنا نلتمس العز في غيره ذلنا»..

فلننظر كيف كانت علاقة «عمر» بربه.

لننظر كيف التقت طبيعة قوية. بنسك قوي، ليُنجبا الرجل

القوى الأمين.

ولسوف نجد كل تصرفات «عمر» تسير وفق إجلالِ لله فريد.
أجل، إن «عمر» ليخشى ربه خشية، ويوقره توقيراً، حتى إنه
ليكاد يذوب ويتحلل كلما هَوَّمتْ حوله من بعيد ومضة من ومضات
ربه ذى الجلال والإكرام.

وكان لا يفتأ يردد لنفسه هذا اللحن المهيّب: «ما تقول لربك
غداً»؟!

نعم.. «ما تقول لربك غداً»..؟

عبارة قد نتلوها نحن في دعةٍ ويُسّر، أما هو فكانت تزلزله
زلزالا شديداً..!!

يقول الأحنف بن قيس:

- «كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين
انطلق معي فأعدني على فلان فقد ظلمني.. فرفع عمر درّته وخفق
بها رأس الرجل وقال له: تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم،
مقبل عليكم، حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه:
أعدني.. أعدني..»

«فانصرف الرجل غضبان أسفاً، فقال عمر: عليّ بالرجل.

«فلما عاد، ناوله مخفقتة وقال له: خذ واقتصّ لنفسك مني.

«قال الرجل: لا والله، ولكنني أدعها لله.. وانصرف، وعدت مع

عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول:

– ابن الخطاب؟ كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله.. ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعديك فضربته، فماذا تقول لربك غداً إذا أتيته؟!؟!

* * *

ما تقول لربك غداً..؟

فى هذه العبارة، يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتستمد حياته معاييرها وموازينها.
وفىها يتمثل جواز مروره إلى الدنيا، وجواز مرور الدنيا بكل طبيباتها إليه.

فأمام كل لقمة شهية.. وأمام كل شربة باردة.. وأمام كل ثوب جديد تتساقط دموعه.. تلك الدموع التى تركت تحت مقلتيه خطين أسودين من فرط بكائه، ويصلصل داخل نفسه هذا الذئير «ما تقول لربك غداً»..؟

هذا هو جبار الجاهلية، وعملاق الإسلام.

هذا هو أمير المؤمنين الذى تفتحت لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا، واستقبل الناس جيوشه كأنها البشريات.
هو ذا، يؤم الناس فى الصلاة فيسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الأخير..!

وها هو ذا يعدو، ويهرول وراء بغير أفلت من معطنه، ويلقاه «على بن أبى طالب» فيسأله: إلى أين يا أمير المؤمنين؟

فيجيبه: بعيرٌ نَدَّ من إبل الصدقة أطلبه.

يقول له: «على»: لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك..!

فيجيبه «عمر» بكلمات مُتهدِّجة:

— «والذي بعث محمداً بالحق، لو أن عَنَزاً ذهبَتْ بشاطئِ الفرات،

لأخذ بها عمر يوم القيامة»..!

أكان «عمر» يخاف الله خوف العبد الذي يُرهبه قرع العصا ولذع

السياط..؟

لا. وإنما كان يخشاه خشية الحر الذي يرجو لربه وقاراً، ويضرع

إليه إجلالاً وإكباراً، ويخجل أن يلقاه بتقصير — أى تقصير..!!

وهذا هو نشيده دوماً:

— «كنتَ وضيعاً فرفعتك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً

فأعزك الله، فما تقول لربك غداً إذا أتيت»..!؟

ولكن، لم كل هذه الخشية الضاغطة، والحياء الداهم؟

إن «عمر» قد تأدب على يدى رسول الله أحسن تأدب، وإنه لِيَتَابِعِ

الرسول فى غير جَنَفٍ أو مَيْلٍ، وإنه لَذُو نَسْكِ عَظِيمٍ، وإنه لَنَسِيحٌ

وَحِدِهٍ فى ورعه، وإخباته، وزهده، وتقواه.

أفلا يُفِيء هذا على نفسه القلقة كثيراً من الطمأنينة والراحة؟

بلى يُفَىء.. لو كان إنساناً آخر غير «عمر» أما هو فلا يرى في هذا النسك كله سوى جُهد المُقِلِّ العاجز، ولا يرى في توفيق الله له سوى نعمة تستوجب شكرًا يليق بها..

ذات يوم، يقول لجليسه «أبى موسى الأشعري»:

– «يا أبا موسى، هل يَسْرُكُ أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه، وشهادتنا، وعملنا كله يُرَدُّ علينا، لِقَاءَ أن ننجو كَفَافًا، لا لنا ولا علينا؟»

فيجيبه أبو موسى «لا والله يا عمر، فلقد جاهدنا، وصلينا، وصُمننا، وعملنا خيرًا كثيرًا، وأسلم على أدينا خلق كثير وأنا لنرجو ثواب ذلك».

فيجيبه «عمر» ودموعه تتحدّر على وجنتيه كحَبَّاتِ لُؤْلُؤٍ منثور:

– «أما أنا، فو الذى نفس عمر بيده لُودِدْتُ أن ذلك يُرَدُّ لى، ثم

أنجو كَفَافًا، رأسًا برأس»!!

انظروا إلى أى مَدَى يهاب الله ويستحي من جلاله!!

إن رسول الله بشّره بالجنة.

وإنه لأقوى من كل شهوة وزلّة، حتى لكأنه معصوم من الخطأ

عصمة كاملة!!

ومع هذا يقف دائمًا من الله موقف الخشية والحذر والحياء...

ولم لا يكون كذلك، وهو يرى رسول الله نفسه، يقضى ليلته

كله متهجدًا متعبدًا، ونهاره كله صائمًا ومجاهدًا، فإذا قيل له:

يا رسول الله، لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيجيب ﷺ قائلا: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟
إنه توقيير الله أكثر ما يكون التوقير، وشكرانه أكثر ما يكون الشكران..

وهذه هي المدرسة التي تربي فيها «عمر» وتخرج.
مدرسة لو لم يخف أهلها الله، ما فكروا فى عصيانه، ولو لم يكن للإثم عقوبة، ما فكروا فى أن يأتّموا، ولو قال لهم الله: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، ما خطر ببالهم قط أن يعملوا إلا ما يرضى ربُّهم ويُحب..

ذلك أن علاقتهم بالله لم تكن بواعثها الفزع. بل كانت حب الله وتوقيره، والحياء منه.

وإن إنساننا الباهر العظيم «عمر» ليمثل قمة هذا الفهم السديد.
إنه على يقين بأن أحداً لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره مهما تكن حياته فاضلة عادلة مستقيمة.

وإنه ليعلم أن كل شكر لله إنما هو نعمة جديدة، تستأهل شكراً جديداً..

وهو يعلم أن ما أفاء الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هي من محض فضله سبحانه وتعالى، وأن الله كان قادراً على أن يختصّ بهذا سواه، أما وقد آثره هو وقال له: إليك منى هذه العطايا يا «عمر».. فإن هذا ليجعله يذوب، ويذوب.. وينكمش ثم

ينكمش... ويقول وقد فَجَّرَ حياءَه هذا الشعور: «يا ليت أم عمر،
لم تلد عمر»!!

أو يردد: «ما تقول لربك غداً»؟!

إنه مصمم على أن يتفوق على ذاته، ويجاوز كل حدود قُدراته
حتى يحقق أكبر حظ ممكن من العرفان والشكر لبارئهِ وخالقهِ
وربه.

«فعمرو» الذى يقف خلف رسول الله - واحداً - من أصحابه..

و«عمرو» الذى يصير فيما بعد خليفة لرسول الله وأمينه على
أصحابه..

«عمرو» هنا وهناك، هو هو، ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأواب
الذى لا يرجو فى دنياه وأخراه سوى أن ينجو كفافاً لا وزر ولا أجر!
إنه لا يطمع فى أكثر من ألا يقف بين يدي ربه خزيان بسبب
خطأ ارتكبه، أو مظلمة قصر فى درئها، أو نعمة لم يبذل الجهد
فى شكرها!!

لا شىء يُؤرقه فى نومه، ويقلقه فى صحوه مثل الخشية من أن
يسأله ربه غداً فى عتاب «لماذا فعلت هذه يا عمرو»؟؟

و«هذه» التى هى رمز لأى فعلة مجهولة، تحمله على أن يقضى
عمره كله جَواباً داخل نفسه وخارجها باحثاً عن «هذه»... ومحاذراً
أن يقتترف هفوة وهو لا يدري!!

ولكن ما شأن السيئات بعمر، وهي التي تفرّ منه مذعورة إذا أبصرت نوره على بعد فراسخ؟!!

لقد حرم «عمر» نفسه من طبيبات كثيرة، ومن مناعٍ لم يحرمها الله عليه؛ لأنه كان يرى نفسه عاجزاً عن شكر القليل، فلم يرد أن يتورط في عجز أكثر أمام النعم الكثيرة.. ولأنه كان يحمل في أمانة كاملة مسئولية القدوة!!

ولو شاء أن يظفر بالمناعم المباحة على كثرتها لظفر بها جميعاً، ولكن بطولة روحه وعظمة نفسه، واستقامة نهجه حملته دائماً على أن يلتزم الكفاف ويختار الشّطف.

زاره يوماً «حفص بن أبي العاص»، وكان «عمر» جالساً إلى طعامه، فدعا إليه حفصاً، ولكن حفصاً رأى القديد اليابس الذي يأكل منه «عمر»، فلم يشأ أن يكبد نفسه عناء ازدياده، ولا أن يُجشّم معدته مشقة هضمه؛ فاعتذر شاكرًا.

وأدرك أمير المؤمنين سرّ عزوفه عن طعامه، فرفع بصره نحوه وسأله:

— ما يمنعك عن طعامنا؟

ولم تنقص الصراحة حفصاً فقال: إنه طعام جشِب غليظ وإنى راجع إلى بيتي فأصيب طعاماً ليئناً قد صنع لي... فقال «عمر»:

— «أترانى عاجزاً عن أن آمر بصغار المعزى، فيلقى عنها شعرها، وأمر برقاق البر، فيخبز خبزاً رقاقاً، وأمر بصاع من

زبيب فيلقى في سمن. حتى إذا صار مثل عين الحجل صب عليه الماء، فيصبح كأنه دم غزال فأكل هذا وأشرب هذا؟؟؟».

فقال له حفص وهو يضحك: إنك بطيب الطعام لخبير!!
واستأنف «عمر» حديثه فقال:

– «والذي نفسى بيده، لولا أن تنقص حسناتى لشاركتكم فى لين عيشكم – ولو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأرفهكم عيشاً، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه، ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها.. وإنى لأستبقى طبيباتى؛ لأنى سمعت الله تعالى يقول عن أقوام، أذهبتم طبيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها!!!»

هكذا عزله حياؤه من الله عن كل ترف، بل عن كل راحة فى الدنيا، وأبى أن يصيب وأهله من الطعام إلا تقوُّتاً، ومن العيش إلا كفافاً!!!

فإذا جئنا موقفه من السلطان، حيث يتنازل الناس عن أكثر أعمارهم لقاء أيام يقضونها سادة حاكمين، فماذا نجد؟!
أما هذا السلطان، على ضخامة ما أحرز منه «عمر»، فما شقى بشيء مثلما شقى بأن رأى نفسه خليفة، وأميراً، وحاكماً!!

لقد كانت أغلى أمانيه أن يظل «عمر بن الخطاب»، لا غير..
فلا هو خليفة، ولا هو أمير.

ولقد اقتربت منه الخلافة إثر وفاة رسول الله؛ إذ بسط إليه
«أبو بكر» يمينه في اجتماع السقيفة قائلاً: هات يدك يا «عمر»
نبايع لك.. ولكن «عمر» خلع منها ناجياً، إذ قال:

– «بل إياك نبايع فأنت أفضل مني».

قال أبو بكر: «أنت أقوى مني يا عمر».

قال «عمر»: «إن قوتي لك مع فضلك». وسارع فمد يمينه وبايع
أبا بكر، وبايعه الناس على أثره.

وحين كان أبو بكر يودع الدنيا، ويعهد بالخلافة «لعمر». كان
«عمر» يتقبل مكرهاً وكارهاً إمامة المؤمنين، ولولا أن يكون باعتذاره
عنها في هذا الظرف الحرج الدقيق هارباً من واجب سيسأله الله
عنه غداً، لرفض السلطان وهرب من الإمارة.

«أيها الناس... إنى قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم
لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاعاً بأموركم ما توليت ذلك
منكم، ولكفى عمر انتظار الحساب!»

انظروا... ولكفى «عمر» انتظار الحساب!!

هذا رجل مشغول – لا غير – بالكلمة التي سيقولها له الله غداً
وبالكلمة التي سيقولها هو لله.

والحظوظ الوافية عنده ليست فى منصب أو جاه، إنما هى فى
الظفر برضاء الله سبحانه.

وقد عليه يوماً جماعة من المسلمين النازحين. فسألهم عما
صادفهم من أخبار الناس فى البلاد التى مروا بها.

فقالوا: أما بلد «كذا» فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون
بأسه.. وأما بلد «كذا» فإنهم جمعوا أموالاً كثيرة تنوء بها السفن
وهم فى الطريق بها إليك.. وأما بلد «كذا» فإن بها قومًا صالحين
يدعون الله لك ويقولون: «اللهم اغفر لعمر وارفع درجته»..

فقال «عمر»، مُعقَّبًا على حديثهم هذا:

– «أما من خافنى، فلو أريد بعمر الخير ما خيفَ منه.. وأما
الأموال التى تنوء بها السفن فلبيت مال المسلمين.. ليس لعمر ولا
لآل عمر فيها شىء.. وأما الدعاء الذى سمعتم بظَهْرِ الغيب، فذلك
ما أرجوه!!»

أجل، هذا خير ما يرجو «عمر».. مغفرة ربه ورضوانه. أما
السلطان، وما حول السلطان من زينة وزخرف ونفوذ؛ فتلك محنة
«عمر»، وإنه ليسأل الله أن يجتازها فى خير وعافية!

حين دُعِيَ للقاء ربه، واقتربت اللحظات التى سيودع فيها دنيا
الناس، وكانت مشغلتة الكبرى آنئذ اختيار الرجل الذى يسلمه
الأمانة والزمام، اقترب منه «المغيرة بن شعبة» قائلا: أنا أدلك
عليه يا أمير المؤمنين، إنه «عبد الله بن عمر»..

هنالك انتفض «عمر» وقال: «لَا إِرَبَ لَنَا فِي أُمُورِكُمْ، إِنِّي مَا حَمِدْتُهَا - يَعْنِي الْخِلاَفَةَ - فَأَرْغَبُ فِيهَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. إِنْ كَانَتْ خَيْرًا فَقَدْ أَصَبْنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا، فَبِحَسَبِ آلِ عَمْرٍ أَنْ يُحَاسِبَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ وَيُسْأَلُ عَنْ أَمْرِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ... أَلَا إِنِّي قَدْ جَهَدْتُ نَفْسِي وَحَرَمْتُ أَهْلِي.. وَإِنْ نَجَوْتُ كِفَافًا لَا وَزَرَ وَلَا أَجْرَ إِنِّي لَسَعِيدٌ!»!

بِاللَّهِ مَا اتَّقَاهُ، وَمَا أَنْقَاهُ، وَمَا أَبْرَهَ، وَأَطْهَرَهَ!!
إِنَّهُ مَهْمُومٌ بِمَا سَيَقُولُهُ لِرَبِّهِ غَدًا.

إِنَّهُ يَرْفُضُ كُلَّ نَعِيمٍ يَخْشَى أَنْ يَلْجُلِحَ لِسَانَهُ غَدًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ. وَيُجْفَلُ عَنِ السُّلْطَانِ عَلَى فِرْطِ عَدْلِهِ وَوَرَعِهِ وَأَمَانَتِهِ، مَخَافَةَ أَنْ تَتَعَثَرَ الْكَلِمَاتُ عَلَى لِسَانِهِ غَدًا حِينَ يَلْقَى اللَّهَ!
إِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي سَيَجِيبُ بِهَا غَدًا حِينَ يَسْأَلُهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، هِيَ «الْبُوصْلَةُ» الَّتِي تَتَحَرَّكُ مَعَهَا وَعَلَى هِدَايَتِهَا كُلُّ ذَرَاتِ كَيَانِهِ وَرُوحِهِ.

وهُوَ فِي شِدَّتِهِ حِينَ يَشْتَدُّ، وَفِي لِينِهِ حِينَ يَلِينُ، إِنَّمَا يَحْرِكُهُ حِرْصُهُ الشَّدِيدُ عَلَى أَنْ يَلْقَى اللَّهَ صَادِقَ الْحُجَّةِ.
يَقُولُ «لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ»:

- «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، لَقَدْ لِنْتُ لِلنَّاسِ حَتَّى خَشِيتُ اللَّهَ فِي اللَّيْلِ، ثُمَّ اشْتَدَّتْ حَتَّى خَشِيتُ اللَّهَ فِي الشَّدَةِ، وَأَيُّمُ اللَّهِ لَأَنَا أَشَدُّ مِنْهُمْ فَرَقًا وَخَوْفًا، فَأَيُّنَ الْمَخْرُجِ؟».

يقول هذا، وينتحب باكياً.

فيقول عبد الرحمن بن عوف، وهو يتملئُ هذا المشهد الفريد:
- «أف لهم من بعدك»!

تُرى كيف قضى الرجل العظيم تلك السنوات العشر، والأشهر
الستة، والأيام الأربعة التي قضاها خليفة للمسلمين وأميراً
للمؤمنين؟؟

تري كيف قضاها، وأمضاها، وعانها تحت ضغط هذا الإحساس
الراجف، والقلب الواجف من خشية الله العلى الأعلى؟
وهل سمع الناس فى طول دنياهم وعرضها، بعاهل استحالت كل
أبهة السلطان وبذخه أمام ناظريه إلى جمر ملتهب يتوقاه أكثر ما
يكون التوقى، ويحاول الفرار منه لو يجد للفرار سبيلاً؟
عاهل دُلَّ كل سلطانه لخشية الله، ووفر للناس من الطمأنينة
والأمن قدرَ ما خاف هو الله؟

حاكم لم تنل من سكينه نفسه مهامُ الأمور وأخطارها، ولا عقد
ألوية الجيوش الفاتحة وأخبارها، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالا
شديداً آهة مظلوم، أو نفثة مكروب، أو همهمة حق ضائع يقول له
صاحبه «اتق الله يا عمر»!!

هل سمع الناس بمثله؟! .. ومتى؟..

ذات يوم وهو جالس مع أصحابه اقتحم المجلس رجل مكروب
تَغشاه وَعَثاء السفر، وإذ يقترب من الناس ويراهم يقولون لأحدهم
يا أمير المؤمنين، يتجه صوب هذا الأمير، ويقول له فى مرارة:
- «أأنت عمر؟؟ ويل لك من الله يا عمر!» ثم يمضى لسبيله غير

وَأَنٍ ولا مكترث..

ويلحق بعض الحاضرين بالرجل فى غيظ منه وحنق عليه، ولكن
«عمر» يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلسهم، ويهرول هو وراء
الرجل وفؤاده يرتجف.

ألم يقل له الرجل: ويل لك من الله يا «عمر»؟؟ إنها الطَّامَّةُ إنن،
وإنه الهول الذى لا يطيق «عمر» عليه صبراً!
ويدرك الرجل ثم يعود به ويسأله: «ويلى من الله لماذا، يا أخا
العرب»؟؟

فيجيبه الرجل: لأنَّ عمالك وولاتك لا يعدلون، بل يظلمون.

ويسأل «عمر»: أى عمالى تعنى؟

يقول الرجل: عامل لك فى مصر اسمه «عياض بن غنم».

ولا يكاد «عمر» يسمع تفاصيل الشكوى حتى يختار من أصحابه

رجلين ويقول لهما: اركبا إلى مصر، واتنيتانى بعياض بن غنم!!

* * *

هذا الرجل «عمر»..

هذا الشامخ العارم الذى يتفجر قوة وجُراً وبأساً..

إذا أردت أن تبصره يرتجف.. كعصفور احتواه إعصار، فليس

عليك إلا أن تقول له: ألا تتقى الله يا «عمر»؟؟

هنالك تشهد إنساناً قامت قيامته، ويبدو كما لو كان واقفاً أمام

الله.. الميزان عن يمينه، والصراط إلى يساره، وكتابه منشور أمام

عينيه، والأفق كله يدوى فى سمعه:

﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾ [سورة الإسراء:

الآية ١٤]!!

وعلى الرغم من معاناته المضنية لهذه المواقف، فإنه كان يقرُّ

بها عيناً ويطيب نفساً، لأنها تذكّره بجلال الله وبمقامه، ولأنها

تمنحه اليقين بأنه لم يجاوز قدره أبداً كعبد لله، و خادم للناس!!

لطالما كان يدعو «أبا موسى الأشعري» ليتلو عليه بصوته العذب

المؤثر آيات من القرآن العظيم ويقول له: «ذكّرنا ربنا، يا أبا

موسى» فيقرأ أبو موسى، ويبكى عمر..

وكثيراً ما كان يلقي صبيّاً من الصبيان فى طرقات المدينة، فيأخذ

بيده ويقول له وعيناه تفيضان من الدمع: «ادع لى يا بنى، فإنك لم

تُذنب بعد»!!

وساعةً كان يستقبل الموت، يقول لابنه عبد الله:

– «يا عبد الله، خذ رأسى عن الوسادة وضعه فوق التراب، لعل الله ينظر إلى فيرحمنى»!!

إن الميزان قد استقام فى يد «عمر» تماماً حين أسلم وجهه لله وهو محسن.

وإن طبيعته الهادرة الجياشة، وقدراته الفائقة الغلابة، قد نهضت ثابتة الخطى فوق صراط العدل، والفضيلة، والواجب، حين وثقت بالله عراها. وأسلست وراء «محمد» خطاها..

وليس يُحاذر «عمر» على نفسه وعلى مصيره خطراً مثلما يحاذر أى انعزال عن الله، وأى انحراف عن طريق رسوله.

كان قبل إسلامه يتحرى الصواب ليسير وفقه سيرة جديرة باستعداده وعظمة شمائله، وقوة روحه.

أما اليوم، فقد عرف محض الحق ومحض الصواب حين جاءهم به من عند الله رسول كريم، لا ينطق عن الهوى.

وإن «عمر» ليؤرخ ميلاده بهذا اليوم الذى صافح فيه الرسول وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»..

فيومئذ، بل ساعتئذ، وجد نفسه، والتقى بمصيره العظيم..

وهو حين آمن بالله وبرسوله، وبدينه، لم يؤمن إيمان العوام، ولا إيمان المنتفعين، ولا إيمان الهواة.. بل آمن إيمان العارفين الأبرار.

وحين سمع لأول مرة آية الله يتلوها رسوله.. تلك الآية التي

تقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥)

[سورة المؤمنون: الآية ١١٥]. سمعها، وكأنما يسمعها وحده، وكأنما أنزلت إليه وحده.. وأدرك يومئذ كما أدرك قبلئذ أن حياته القصيرة مهما تطل سنواتها لن تغنى عنه شيئاً، وأنه بحاجة إلى ألف حياة مثلها لكي يستطيع أن يصنع صنيعاً يرضيه.. ولكي يستطيع أن يعبد ربه ويشكره.

من أجل هذا، كان شديد الخوف على اللحظة العابرة أن تضيع وعلى الكلمة العابرة أن تنحرف.. وعلى الخلجة العابرة، أن تزل..

كان شديد الخوف على حياته السامقة أن تغيرها خطيئة، أو تعيبها شبهة؛ لأنها لو كانت ملكاً له لوجب عليه أن يربأ بها عن كل سوء، فكيف وهي في تقديره ليست حياته، وليست ملكه إنما هي وديعة الله عنده.. والله صاحبها ومالكها ولسوف يسأله عنها:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥)

[سورة المؤمنون: الآية ١١٥]!!

من أجل هذا، عاش قلقاً مؤرقاً.. ولكنه القلق الذكي المبتعت والأرق المفكر الممتلي...

لا ينام إلا غباً.. ولا يأكل إلا تقوّتاً.. ولا يلبس إلا خشناً. يقظان دائماً..

يقول: «إذا نمتُ الليل أضعتُ نفسي، وإذا نمتُ النهار ضيعتُ الرّعية»!!

ويسأل كل من يلقاه في لهفة وجد: قل لى بربك ولا تكذبني كيف تجد عمر؟.. أتحسب الله عنى راضياً؟.. أترانى لم أخن الله ورسوله فيكم «!!!»

وإذا غَشِيته من مظنة التقصير غاشية، صاح صيحة مكظومة:
- «يا ليت أم عمر، لم تلد عمر»!!
كل هذه الرجفة.. كل هذا الحياء.. كل هذا الهم الجليل، لأنه لا يدري:

ماذا يقول لربه غدًا!!!

